السَّجين

بَعد انتهاء دوام العمل في السابعة، اتَّجه (سعد) و(مرزوق) وزميليهما (أحمد) و(نشأت) إلى سيارة أجرة، وركبوها مُتّجهين إلى أحد المطاعم لتناول الغداء، كان اتفاقًا مقيدًا بينهم منذ شهور..

ـ تناوُل الغداء ودخول السينما ـ لمْ تتحيّن لهم الفرصة لتنفيذه إلّا اليوم، فلمّا وصلوا إلى مكان المطعم ترجّلوا من السيارة، ثم أشعل (سعد) سيجارته ريثما ينهي (مرزوق) الحساب مع السائق، جلسوا على طاولتين متلاصقتين، وحضر النادل، وبدأوا في نقاش قائمة الطعام وطلب الغداء، بدا لـ(سعد) الحوار مع الرفيقين طيبًا، خاصة أنَّه كان خارج نطاق العمل، واتفقوا على أنْ يحضروا الفيلم الذي رشَّحه (مرزوق) فالفيلم عودة لنجم شباك كبير يحبه كثيرًا، وهذا فيلمه الأول بعد غياب لثلاثة أعوام، فلمّا أنهوا وليمة الغداء من الحمَام والمشويات، اتجهوا للسينما بجوار المطعم، وحجزوا تذاكر لحفلة العاشرة مساءً.

في قاعة السينما المُكتظة بالناس، جلس (سعد) على مقعده بجوار صديقه (مرزوق)، بدا على (مرزوق) الارْتِيَاحُ عندما أغلِقت الأنوار استعدادًا لبدء الفيلم.. كم يحب الهدوء!.. سار فاصل الإعلانات عن الأفلام القادمة سريعًا، ثم تلاه الفيلم ببدايته، بدا كل شيء هادئًا وجميلًا لـ(سعد) الذي تطلَّع بجواره من الجهة الأخرى، فوجد رجلًا وبجواره زوجته أو صديقته، لا يعلم، يضحكان، رمقهما بنظرة سريعة متسائلة فالمشاهد من الفيلم إثارة وحركة، ولا تستدعي منهما الضحك هكذا وبصوت عالٍ، عندما جاءه صوت (مرزوق):

ـ ما بك يا رفيق؟ تابِع الفيلم.. بماذا أنت منشغِل؟

نظر له (سعد) بنظرة تشير عليه بالهدوء، وأشار بيده حيث الرجل ورفيقته، نظر (مرزوق) حيث أشار صديقه، ابتسم لمَا رآه، وأشار بيده أنَّهما كالمجانين.. فضحك هو وصديقه ضحكة سخرية مِن تصرفات هذين الشابين، وعاودا متابعة الفيلم.

أحداث الفيلم تشير إلى سرقة بنك، قامت به بإتقان عصابة مكوَّنة من أربعة أفراد يقودهم البطل، وكيف كانت المصاعب والأزمات تصنَع الأحداث في نسق دراميّ فريد، فيلم صُنع بإتقان، وليس غريبًا أنْ يتصدَّر شباك الإيرادات.. ورغم ذلك جُل ما كان يَشغل (سعد) هي الضحكات المتعالية مِن جهة الرجل وصديقته، ترك الفيلم وبدا مهتمًا بكل حرفٍ يَصدر منهما، كل همسة، كل لمسة، دائمًا ما كانت تغضِبه مِثل هذه الترهات ، تذكَّر لمّا حضر السينما لأول مرة صغيرًا مع والداه، جلس بينهما يتابع الفيلم، كان الجو مشحونًا بالتوتر، فالفيلم فيلم رعب، ووالده يمسك يد والدته تارة، وتارة يدخلها في حقيبته، كان باديًا عليه التوتر بشدة، فقطرات العرق التي تغطّي جبينه وملامحه الشاحبة تتكلم، ظنَّ (سعد)

أنَّ أبيه خائف مثله، بَيد أنَّ الرد جاءه وبسرعة، حينما استلّ السكين من الحقيبة وطعن أمه طعنة نافذة في القلب، صاحت المسكينة صيحة لمْ يَسمع (سعد) مثلها أبدًا، ثم سقطت على الأرض مرتطمة بالكرسي المقابل لها، حدثت بلبلة، وضجة كبيرة في القاعة، وصاح الناس، وذاع الذعر بينهم، وأخذوا يتحركون على غير هدى، منهم مَن خرج بسرعة في الظلام، ومنهم مَن اتجه حيث مصدر الصوت وذُعر مِن المشهد، ومنهم مَن أفزعته الصدمة فتوقف مكانه لا يَقوى على فعل شيءٍ، فالمسكينة كانت تنتفض كالفرخ المذبوح، أمَّا هو، (سعد) فكان مُحملقًا في وجه أبيه الذي كان يتمتم بعبارات الغضب والوعيد لأمه المُسجاة أمامه، وقد فاضت روحها لبارئها.

يحدُث في حياة المرء أشياءً فارقة لا يستطيع منعها، أو حتى إدراكها، مهما طال عليها الزمان، تتخلله، وتعبره؛ فيصبح أشبه ببحيرةٍ سطحها ساكن، وباطنها مضطرم.

هزه (مرزوق) قائلًا:

ـ هيا (سعد) يا سرحان لقد انتهى الفيلم.

لمْ ينتبه إلّا على كلمات صديقه، التفت إلى الشابين فلمْ يجدهما، وشاهد جموع الحاضرين يهمون بالمغادرة، أدرك أنَّه شرد في ذكرياته، حتى (مرزوق) قال له كلماته وسبقه ورفيقاه للخروج، فلمّا نهض من مكانه أحس بحذائه وكأنَّه يطأ الماء، نظر إليه فإذا هو سائل قاتم كالدماء، تعجَّب في صمتٍ.. ما هذا؟ ولمَ أمامه هو فقط؟!

تحرك بسرعة مغادرًا مكانه، فسمع صوت موسيقى الفيلم ترتفع، استدار وهو على باب القاعة والعرق يتصبَّب منه ناظرًا للشاشة فشاهد اللقطة الأخيرة وعليها أسماء الأبطال، وفريق العمل، ثم فجأة انقطعت الصورة، وظهر وجه أمه بملامحها الخائفة، وعينيها البراقتين، تنظر له مباشرة، وسمع صيحتها الرنانة، ارتعد وأسرع يغادر قاعة السينما، ينادي على (مرزوق) ورفيقيه، ويبحث كما يبحث دائمًا.. عن الأمان.